فولتير وفردريك الأكبر

(كيف تصادقا ، ولماذا افترقا)

فولتير من الكتاب القلائل الذين اعتلوا ذروة المجد ، وبلغوا أقصى ما بلغه كاتب من الشهرة والتأثير ، وكان القلم بين أنامله أكثر سطوة من الصولجان فى يد الملك المتوج ، وأمضى حدا من السيف فى يمين الفاتح العظيم ، فهو يغير به الآراء ، ويوجه الأفكار ، ويهدم ما شاء من المذاهب ، وقد وطّأ له هذا الملك الواسع فى عالم الفكر تعدد جوانبه ، وتنوع ملكاته ، ومشاركته فى فنون شتى وضروب مختلفة من المعرفة . فقد كان الشاعر المفلق الذى لا يشق له غبار ، وكان الناثر الذى خضعت لإمرته اللغة وانقاد له مستصعب البيان ، وكان الناقد الذى تتقى نظراته وتخشى بوادره ، وكان المؤرخ المجدد القليل المثال ، والفيلسوف اللامع الذى يرسل الضوء فى مشكلات الفلسفة فتبدو جلية واضحة المعالم . وقد أجاد الاقتصاد وحذق فنونه ، وغاص فى لجج المسائل المالية ، والمشروعات الاقتصادية ، حتى كثرت أرباحه ، وتضخمت أمواله ، ونال من الثروة الواسعة ما لم تدر مثله حرفة الأدب الشحيحة على من أدركتهم وأوقعتهم فى شباكها ، وقد أعجب به عظماء عصره وكبراؤه وأعيانه ، واتصلت بينه وبينهم الأسباب ،

فاستزاروه فى قصورهم ورحبوا به فى مجالسهم ، وراسلته القيصرة كاترين الروسية والبابا بندكت ، وكان من مراسليه المعجبين بأدبه المكبرين لعبقريته الأمير فردريك ولى عهد بروسيا الذى صار فيما بعد فردريك الأكبر .

كان هذا الأمير وهو يعانى الكرب والشدة ، ويذوق الغصص المتداركة ، قد وجد فى كتابات فولتير لذة الفكر ، ومتعة الروح . ففى سنة ١٧٣٦ أرسل إليه رسالة يزف إليه فيها إعجابه ، ويقدم له تقديره ، وكان منى نفسه أن يسطع فى سماء الشعر الفرنسى نجما ثاقبا ، وكان غمر البديهة موفور الذكاء ، يجيد النثر الفرنسى ، ولكنه كان مع ذلك يشعر بكثرة الأخطاء التى تتسلل إلى أسلوبه ، وتدب إلى شعره ، فتفسده وتشوه جماله . وكان من الطبيعى أن يشعر بالتقدير الكبير والإعجاب الفائق بالرجل الذى جلّى فى هذا الميدان ، وأوفى فيه على الغاية ، والذى أجمع نقاد عصره على أنه أكبر شعراء المأساة فى أوربا ، وأقدر الناثرين وأرسخهم قدما ، وقد بدأ الأمير فردريك رسالته هكذا !

سيدى :

ولو أنى لم أحظ بعد بمعرفتك معرفة شخصية ، فإنك معروف عندى بمؤلفاتك فهى كنوز العقل » وقد سر فولتير لهذه الرسالة ، فقد كان تطلعه إلى الجاه لا ينقضى وكان ظمؤه إلى الشهرة لا يرتوى ، وأجاب الأمير مطريا شعره ، مثنيا على أدبه مبديا الإعجاب بتفكيره ، وكان رده يكاد يقطر من البشاشة و يسيل من الرقة .

وتوالت الرسائل بينهما ، وكانت رسائل بين أستاذ وتلميذه ، وكانت ميول فردريك موزعة بين الفلسفة الألمانية والشعر الفرنسى ، وقد تناولت هذه الرسائل فيما تناولت مسألة « حرية الإرادة » وما إليها من المسائل الفلسفية والنظريات الأخلاقية ، ولم يقصر فولتير فى استرعاء نظر تلميذه الملكى الأريب إلى ما كان يقع فيه من أخطاء ، ونقده نقداً ليناً رفيقاً . وكانا فى هذه الرسائل يتقارضان الثناء ويتبادلان المجاملة . وكان فولتير يوازن فيها بين تلميذه وبين أبولو والسبياديز ومرقس أورلياس ويقول بعودة مواهب فرجيل مقترنة بمواهب أغسطس ، أو يقول « ليس سقراط عندى بشىء وإنما قد استأثر فردريك بحبى » . وكان فردريك فى ردوده يقول له « لا تحسبنى أدفع الشك إلى أقصى مداه فأنا أعتقد أن هناك إلها واحداً كما أن هناك فولتيراً واحداً » . ولم يكن إعجاب فردريك بفولتير خاليا من الإخلاص ، وكان فولتير من ناحيته يعتقد أنه فى ذات يوم قد يجلس على أحد عروش أوربا الأقليمية ملك متوج قد وهب حياته للفلسفة والفكر والأدب ، ولكن سرعان ما ذهبت السكرة وجاءت الفكرة ، واستيقظ الاثنان من الاسترسال فى الأحلام الجميلة والأمانى الحسان .

ففى سنة ١٧٤٠ أصبح الأمير فردريك ملك بروسيا ، واستبشر الفلاسفة والمفكرون والكتاب ، واستفاض سرورهم ، وأملوا خيراً كثيراً . فقد ارتقى واحد منهم العرش ، ولا ريب أنه سيسير سيرة الحكماء ويضع تعاليمهم موضع التنفيذ والاتباع .

وأراد فردريك أن يدعو فولتير إلى بلاطه ، ولكن علاقته بعشيقته مدام دى شاتليه كانت عقبة فى سبيل ذلك ، فقد كانت هى لا تسمح له بالذهاب وحده ، ولم يكن فى الإمكان ذهابها معه إلى بوتزدام ، فقد كان المعروف عن الملك الشاب أنه زاهد فى لقاء النساء ، معرض عن الاجتماع بهن فى المجالس ولو كن أديبات مفكرات من طراز مدام دى شاتليه .

ولكن برغم ذلك كان فردريك يتحرق شوقا إلى رؤية فولتير ، واجتلاء محياه والائتناس بمحضره ، ومطارحته الحديث ، ومناقلته الأخبار ومبادلته الأفكار ، فرتب لقاء فى الأراضى البلجيكية ، وقد دهش فولتير لما رأى الملك يرتدى بذلة عسكرية ، وينام على سرير من أسرة الميدان ، وسرعان ما علمت أوربا جميعها بعد ذلك أن مؤلف كتاب «ضد مكيافلى» قبل التتويج سيكون أكثر ملوك أوربا مكيافلية ، وأشدهم رغبة فى إثارة الحروب ، وسرعان ما عرف فولتير نفسه أن فردريك شخصية أجل خطراً ، وأكثر تعقيداً ، وأبعث على الحذر مما قدر .

والتقى الصديقان بعد ذلك ثلاث مرات ، وكان يعقب كل لقاء فتور من ناحية فردريك ، فقد بدأ يتهم فولتير باطلاع الناس على رسائله الخاصة زاعماً أنه أوصاه بألا يطلع عليها أحداً ، وعاب على فولتير بخله وحرصه . ولكن انتقاصه لأخلاق فولتير لم يقلل مع ذلك من إعجابه به ، وتقديره العالى لمواهبه ، وذلك لأنه بعد تسنمه العرش اضطر إلى هجر البحوث الفلسفية ، ولكن حبه للشعر لم يفتر ، وكان يعتقد أن فولتير سيد

شعراء عصره ، وطالما ناجته نفسه بإغراء فولتير بالإقامة فى برلين ليكون حلية البلاط ، وزينة الحاشية ، وليصبح طوع يده، ورهن إشارته ، فينقح له شعره،و يصقله و يسرّى عنه ببارع أحاديثه ولامع نوادره ، و يمتعه و يسليه.

وفى خريف سنة ١٧٤٣ بدا أن رغبته الأكيدة قاربت أن تتحقق ، فقد حضر فولتير إلى بلاط فردريك . وأحسن الملك لقاءه ، وأكرم وفادته ، و بالغ فى التحفى به ، وقدمه إلى شقيقاته الأميرات ، وشنف أسماعه بالعزف على قيثارته الملكية . ولم تكن زيارة فولتير لفردريك فى هذه المرة زيارة بريئة ، فقد كان البلاط الفرنسى يريد أن يجس نبض فردريك ، و يعرف مدى ما يستطيع تقديمه لفرنسا إذا ما اشتبكت فى حرب مع النمسا من ناحية ومع انجلترا من ناحية أخرى ، ورأى رجال البلاط أن يعهدوا إلى فولتير فى القيام بهذه المهمة . وظن فولتير أنه يستطيع أن يستغل صداقة فردريك ليصير سياسياً ورجل عمل ، ولكن فردريك كان بعيد الدهاء وشيطاناً من الشياطين فلم يغب عن عقله النفاذ قصد فولتير ، ولم يقع فى الشبكة . وقد أراد فولتير أن يبالغ فى التكتم وإخفاء الغرض السياسى لزيارته ، فادعى لفردريك أنه هجا الأسقف ميربوا ، وأن هذا الأسقف القوى النفوذ يطارده ، ويحاول التنكيل به ، وقد اضطره ذلك إلى الابتعاد عن فرنسا ليأمن كيد الأسقف و يتقى شره . ولم يكن فردريك واقفاً على تفصيلات المؤامرة ولكنه أدرك أن زيارة فولتير لبلاطه إنما هى زيارة عين من عيون الحكومة الفرنسية ، ورأى أن الفرصة سانحة لنيل أمنيته .

وأراد فردريك من ناحيته أن يكيد لفولتير ، فجمع الرسائل التى أرسلها إليه فولتير وهاجم فيها الأب ميربوا وبعث بها إلى ميربوا ، وكان يرمى بهذه الخيانة إلى غرضين ، فإما أن الأسقف يثور ويغضب ويشكو فولتير إلى البلاط ، ويضطره إلى التخلى عن فولتير ، فيرغم على البقاء فى بروسيا ويظفر الملك حينذاك بمستشار عبقرى يصلح له كتابته ، ويثقف لغته ، ويصقل شعره ، وإما أن الأسقف لا يغضب ولا يشكو ويكون ذلك دليلا بيناً على خيانة فولتير ، وتواطئه مع الأسقف . وكان الرأى الأخير هو الأصوب والأرجح ، ولكن خطة فردريك فشلت ، فقد أفضى ميربوا إلى فولتير بما حدث ، فغضب فولتير غضباً شديداً ، فقد كان يعرف أنه سيقيم فى برلين بمحض إرادته ، ولكنه علم أن مضيفه يحاول بالخيانة والدسيسة أن يرغمه على البقاء ، وعاد فولتير إلى فرنسا ناقماً على فردريك ، ولكن فردريك كان راغباً فى مسالمته ومهادنته ، وكان لا يزال طامعاً فى الاستحواذ عليه ، واستخلاصه لنفسه ، وأخذ فى رسائله إلى فولتير يكثر من استرضائه وتملقه .

وفى سنة ١٧٤٩ تغير موقف فولتير ، فقد ماتت مدام دى شاتليه ، وتحرج مركزه فى فرساى ، ولم تنفعه صداقة مدام دى بومبادور . وانتهى ذلك إلى مسامع فردريك ، فدعاه إلى برلين ، ولبى فولتير الدعوة فى هذه المرة وحاول جعلها صفقة رابحة ، واضطر فردريك إلى أن يدفع له نفقات رحلته . ولما ورد برلين فى يوليو سنة ١٧٥٠ خصص له فردريك جناحا فى قصر

برلين ، وجناحا آخر فى قصر بوتزدام ، وأنعم عليه بنيشان الجدارة ، وجعل له مرتباً سنويا قدره ثمانمائة جنيه ، وفقد فردريك بعد ذلك البقية الباقية من احترامه لفولتير ، وصار يعتقد أنه نذل خسيس ، وكان ينكر عليه أخلاقه ويعجب بعبقريته ، ولكنه كان فى حاجة إلى من يهذب له شعره ، ومثل فولتير هو خير من يقوم بذلك وماذا يضيره من سوء أخلاقه ، وضعة نفسه ؟ وكان يعتقد فضلا عن ذلك أنه يستطيع أن يأمن شره ، ويلزمه حدود الأدب ، ويهز له السوط ، وذلك بأن يتكلف الفتور فى لقائه ، ويشير إلى إنقاص مرتبه ، وكان فردريك مخطئاً فى حسبانه ، ففولتير لم يكن فرداً يخوف بالسوط ، وإنما كان شيطاناً مريداً وربما كان ملكا فمن الصعب أن نجزم فى ذلك .

وكان المنظور أن تنتهى زيارة برلين بضجة مدوية ، وثورة عنيفة ، فقد كانت عناصر الموقف لا تحتمل سوى هذه الخاتمة ، وهكذا الحال إذا التقى رجلان شديدا الأثرة مثل فردريك وفولتير ، فقد تبعثهما المصلحة فى بادىء الأمر على التعاون ، ولكن سرعان ما تؤكد الطبيعة البشرية نفسها وتسير سيرتها المعهودة ، وكان يزيد هذا الخلاف احتداما تفاوت الموقف ، فقد كان فولتير الخادم وفردريك السيد . ويروى أن فردريك قال لبعض خاصته لما سأله « إلى متى تحتمل نزوات فولتير » « بعد عصر البرتقالة يرمى الإنسان بالقشرة » وعلم فردريك كذلك أن فولتير قال بعد أن تلقى مقطوعات شعرية من نظم الملك ليهذبها « أينتظر منى هذا الرجل أن أظل إلى الأبد أغسل له ملابسه القذرة ؟ »

وهكذا بعد حضور فولتير بأسابيع معدودة بدأ يدب الخلاف بينهما ، وتتجمع السحب فى سماء صداقتهما ، وتوالت نوبات الغضب ، وكان فولتير يقول عنه لمدام دينس — وهى إحدى قريباته « إنه يفتح الرسائل الواردة لنا » . وكان فردريك يقول عنه « القرد الذى يطلع أصدقاءه على رسائلى الخاصة » .

وقد كان حب فولتير الشديد للمال هو سبب إثارة الخلاف ، فبعد ثلاثة أشهر من إقامته ببرلين اشترك مع أحد اليهود فى مسألة مالية مريبة ، ثم تشاجرا واحتكما إلى القضاء ، وترامیا بالتهم المستفظعة ، وخسر اليهودى القضية ، ولكن علقت بسمعة فولتير أشياء كشف عنها تحقيق القضية . وأغضب ذلك فردريك حتى هم بعزله ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى الاستغناء عنه ، فعاد إلى الصفح عنه ورعايته . وكان فولتير فى أثناء إقامته ببرلين محوطاً بعناية الأميرات والأشراف ومحفوفاً بإعجاب الناس من مختلف الطبقات .

ولكن فولتير لم يكن الفرنسى الوحيد المقيم عند فردريك ، فقد جمع فردريك حوله طائفة مختارة من الأشخاص أكثرهم من الأجانب ليتلقى عنهم ما ينقصه من المعرفة ويستعين بهم ، وقد اختار بعض هؤلاء الناس ليتملقه ويترضاه عند ما تضيق أخلاقه ويتعكر مزاجه ، ويسليه عند ما يعتريه الملل وينال منه الهم . وكان فردريك يقضى ساعات فراغه وراحته مع أفراد هذه الحاشية ، يبادلهم الأفكار والنكات .

وكان بين رجال هذه العصبة الشاذة رجل واحد جدير بالاحترام ، وهو « مو برتياس » الذى وضعه فردريك على رأس أكاديمية العلوم فى برلين منذ سنة ١٧٤٥ . وكان رجلا طموحا راغباً فى الشهرة ، وافر العلم ، جم النشاط ، أميناً مخلصاً ، وكان على جانب من الذكاء وحدة الخاطر ، وطالما تناول أضرابه ومنافسيه من العلماء بالتهكم المر والنكات اللاذعة ، فكان ذلك يزيد فردريك إعجابا به وتقديراً له ، وكان لا ينقطع عن حضور عشاء الملك ، وكان وجوده يقض مضجع فولتير ويضايقه ، وقد عرف كل منهما الآخر ، وأعجب به أيما إعجاب ، ولكن صاحبنا الشاعر المزهو الشديد الحساسية المتشكك فى إخلاص الملك ، الشديد الغيرة من المنافسين ، كان يعتقد أن له فى البلاط أعداء خفيين يدبرون له الدسائس ، ويوغرون صدر الملك عليه ، وأن مو برتياس منهم ، وكانت رؤية مو برتياس فى خلال العشاء مشرقاً هادىء البال ناعماً فى ظلال عطف فردريك تثير حقد فولتير ، فأخذ يجهد فكره ، ويتعب رويته فى مراقبة الرجل ، وفحص أقواله وأعماله عله يقع على عيب ، أو يعثر على نقيصة . ولم يحسن مو برتياس التصرف فبدلا من أن يسترضى فولتير عمل على توسيع شقة الخلاف بينهما ، وكان من الطبيعى أن يثور غضبه ، ويفقد توازنه ، فقد كان قبل مجىء فولتير الكوكب اللامع فى المدار الملكى ، ولكنه بعد مجىء فولتير فقد مركزه الممتاز ، فمن ذا الذى يعير حديثه التفاتاً إذا تحدث فولتير ؟

ولاحت بعد ذلك الفرصة ليهاجمه فولتير وينال منه ، فقد كان هذا

الرجل قد أذاع قانوناً رياضياً أدعى أنه اكتشفه ، وعارضه فى ذلك فريق من العلماء والباحثين ، وناقشوه واستندوا فى نقاشهم إلى رسالة من رسائل الفيلسوف الألمانى ليبنتز ، فبدلا من أن يجادلهم موبرتياس و يفند حججهم إدعى أن هذه الرسالة مزورة ، وأيده فى هذا الرأى الملك فردريك .

فاستغل فولتير الفرصة وأحكم تدبير أمره ، وجمع أمواله فى برلين ونقلها سراً إلى خارج بروسيا وفى ١٨ سبتمبر سنة ١٧٥٢ ظهرت فى الصحف مقالة قصيرة كان فيها تفنيد شديد لاذع لما ذهب إليه موبرتياس ، وعرف كاتبها لأن مثل هذا المقال لم يكن ليصدر عن غير فولتير ، ونالت هذه المقالة من موبرتياس وأغضبت الملك ، فلاذ فردريك بمكتبته وكتب رسالة غاضبة حشاها بالمبالغات فى الثناء على موبرتياس ، وملأها بالشتائم الموجهة إلى فولتير .

وعرف فولتير أن الملك قد دخل حومة المعركة فلم يثن ذلك عزمه ، وصمم على أن يحطم كل شىء قبل أن يبارح برلين ، وظل ذلك الخلاف خافياً عن الأنظار حتى ظهرت مجموعة رسائل لموبرتياس ، فانقض عليه فولتير انقضاض الباشق ، وكتب رسالته المشهورة « الدكتور أكاكيا » وفيها أحصى أخطاء موبرتياس وأوهامه وسلّط عليه سخريته اللاذعة ، ونقده الهادم ، وجعل الرجل سخرية الأجيال وأضحوكة لا تنسى . ولم تكن رسالة فولتير مجرد سخرية وتجن ، و إنما كانت حافلة بالملاحظات الصائبة والنقدات الصادقة ، ولكن يشوب ذلك التهكم القاسى المر ، وأطلع

فردريك على الأصل وضحك حتى دمعت عيناه وسالت عبراته على وجنتيه ، ولكنه أمر فولتير بالإمساك عن طبعها وإلا عرض نفسه للعقوبة . وتظاهر فولتير بالطاعة ، ولكن لم تلبث الرسالة أن ظهرت مطبوعة ، وذاع أمرها واستفاضت شهرتها ، فاشتد غضب الملك وأمر بجمع نسخها وإبادتها ، وعنف فولتير تعنيفاً شديداً ، ولم يمض على ذلك شهر حتى كانت ألمانيا مملوءة بنسخ من تلك الرسالة ، فقد طبعت آلاف النسخ فى هولندة وتسربت إلى ألمانيا .

ولا يسع الإنسان فى هذا الموقف إلا الإعجاب بهذا الرجل الذى تحدى إرادة رئيس حكومة قوية اعتماداً على ذكائه . وقال فردريك لفولتير بعد أن علم أن أوربا بأجمعها كانت تضج بالسخرية من الرجل الذى أظله برعايته واختاره رئيساً لأكاديمية برلين « إن فحتك تذهلنى » وأمر بحرق ما تيسر جمعه من رسالة « الدكتور أكاكيا » فى شوارع برلين ، فغضب لذلك فولتير وأعاد إلى الملك الوسام ومفتاحه الذهبى ومرتبه ، وعز على الملك فردريك فراق فولتير فحاول أن يستبقيه وكتب إليه معتذراً ، ولكن الشاعر لم يلن ، وعقد عزمه على الرحيل ، وفى ٢٦ مارس سنة ١٧٥٣ افترق الرجلان افتراقاً أبدياً .